العلاقات الحضارية بين العراق

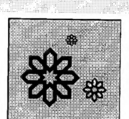


بقلم :

الدكتور حسين أحمد سلمان

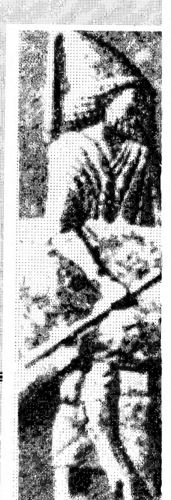
٧٢ - الوثيقة

القديم والخليج العربي



نمت العلاقات الحضارية بين وادي الرافدين ومنطقة الخليج العربي منذ فترة طويلة لأن أحدهما يكمل الآخر جغرافياً . وأن كثيراً من الخصائص البيئية لمنطقة الخليج ينسحب تأثيرها ليشمل الأقسام الجنوبية للعراق وخاصة ظاهرة المد والجزر وسقوط الأمطار والرياح .(١)

يرتبط العراق القديم بمنطقة الخليج العربي بطرق برية بعد استئناس الجمل في حدود الألف الأول قبل الميلاد واستخدامه في أغراض النقل والتجارة والحروب والمرجح أن الرافديين قد أدركوا الجمل عن طريق الأقسام الجنوبية الغربية للعراق المتاخمة لمنطقة الخليج العربي .(٢)



ولكن أهم الطرق القديمة التي ربطت بلاد الرافدين بدلمون (البحرين) والخليج العربي هي طرق الملاحة النهرية الخليجية ويبرز دور نهر الفرات بهذا الخصوص بسبب امتداده الطويل ومروره بمناطق عديدة من بلاد وادي الرافدين وصلاحيته للملاحة فقد أصبح من الطرق الرئيسية التي ربطت مدن العراق القديم بمدن الخليج العربي وأضحت مدن الفرات (أور وبابل وماري) من أشهر مراكز التجارة مع دلمون (البحرين) . خاصة وأن شروط التجارة الملاحية القديمة كانت مهيأة على السواحل الغربية لمنطقة الخليج العربي لضحالة المياه وكثرة التعرجات والجزر والمرافئ والخلجان الطبيعية وتوفير بعض هذه الجزر سبل التموين ولاسيما المياه العذبة ، إضافة إلى حركة الرياح الملائمة التي تعد شرطاً "أساسياً" أمام حركة الملاحة البحرية القديمة .

وبسبب هذه الخصائص الطبيعية في مياه الخليج العربي فقد أصبح من اليسير على وسائط النقل النهرية أن تواصل رحلاتها صوب منطقة الخليج العربي حيث دلمون ومكان وميلوفا ، وبالعكس تسافر وسائط النقل الخليجية شمالاً في نهر الفرات حيث مارى أو كركميش (طرابلس الحالية) .

ومن الجدير بالذكر أن السواحل العربية والجزر القريبة منها قدمت دلائل الاستيطان وبزوغ الحضارة منذ الألف الرابع قبل الميلاد .

ولا تزال آثار دلمون (البحرين) وقطر وأم النار وغيرها خير شاهد على ذلك . في حين لم يكشف عن دليل يؤكد معالم استيطانية قديمة على امتداد الساحل الإيراني . لوعورته وانعدام المياه العذبة فيه بالإضافة إلى عمق مياه الخليج العربي التي تصل ذروتها بحدود (١٠٠م) مما يشكل عائقاً جدياً أمام الملاحة البحرية القديمة .[٣]

إن هذه الخصائص البيئية لمنطقة الخليج العربي خلقت الفرص المناسبة لارتباطات حضارية تاريخية بين العراق القديم ومنطقة الخليج العربي ، ترجع بدايتها بموجب الأدلة الأثرية إلى حدود الألف الرابع قبل الميلاد .[٤]

ولكن هذه الخصائص المشجعة كانت تنتظر الحاجات المتبادلة التجارية والحضارية ، فأرض سومر (Sumer) يغمرها الرافدان بالخير والعطاء وبالتالي العمل الزراعي الواسع ، ولكنها من جانب آخر تفتقر إلى الأحجار والأخشاب والمعادن لذلك كان من الضروري توفيرها من أماكن مجاورة لتأمين حاجات المجتمع في عملية البناء الحضاري .

وتشير المخلفات الأثرية في أريدو وأور في جنوب العراق إلى كثرة استخدام الأحجار والمعادن التي جاءت بالضرورة من دلمون ومكان من خلال نشاطات تجارية . إضافة إلى أن فيض الإنتاج الزراعي والحيواني لبلاد سومر الذي وجد له أسواقاً رائجة في منطقة الخليج العربي .

ومع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد تزدهر المستوطنات القديمة في الخليج العربي مستفيدة من موقعها على طريق الرحلات التجارية ووفرة منتجاتها البحرية من لآلئ وأسماك وأصداف لتبني وفق ذلك مجتمعاً متقدماً في فنونه وعمارته وأفكاره الدينية . وخير مثال على ذلك بلاد دلمون (البحرين) وبقايا معبدها البيضوي (باربار) إضافة إلى المدافن التي تنتشر في أواسط جزيرة البحرين .

وفيما عدا الصلات الوثيقة المتبادلة بين الأقسام المختلفة لمنطقة الخليج العربي والتي تؤيدها المكتشفات الأثرية وأبرزها طرز وعمارة المدافن في الخليج العربي[٥] .

فقد شهدت منطقة الخليج العربي علاقات واسعة مع مدن العراق القديم ، وكانت المبادلات التجارية تجد صداها في النماذج الحضارية المشتركة كما كشفتها مجموعات الأختام المنبسطة في دلمون (البحرين) فالرسوم والأشكال المحفورة على وجوه هذه الأختام تشكل في جوهرها أحياناً موضوعات الأشكال التي تتردد على الأختام الأسطوانية في بلاد وادي الرافدين . وبما أن موضوعات الأختام (المنبسطة والأسطوانية) هي انعكاس للأفكار الدينية والطقوس والمعتقدات فهي آذان تنقل مستوى الاتصالات بين العراق القديم ومنطقة الخليج العربي إلى أبعد

من الاتصالات التجارية بل توحي بأفكار دينية مشتركة وقد تشير إلى أصول بشرية مشتركة أيضاً .

وبسبب العلاقات الحضارية المشتركة بين العراق القديم ومنطقة الخليج العربي فقد تأثر الخليج العربي بالأوضاع السياسية والاقتصادية للعراق القديم فقد كان ازدهار التجارة مع الخليج العربي متزامناً مع فترات الازدهار السياسي والاقتصادي في العراق القديم كما حدث في عهد السلالة الأكدية (٢٣٧١ – ٢٢٥٤ق.م) وعهد سلالة أور الثالثة (٢١١٧ – ٢٠٠٤ق.م) ومطلع العهد البابلي القديم (١٨٠٠ق.م)[٦] . وتستمر مكانة الخليج العربي الاستراتيجية بالعصور المتأخرة فقد اهتم به كثيراً الإسكندر الأكبر وخلفاؤه (٣٣١ – ١٤٤ق.م) ولا تزال آثار الحضارة الهيلنستية منتشرة في التاج وفيلكة ودولة الإمارات العربية . ومما يؤكد أهمية الخليج خلال هذه الفترة ، اهتمام الكتاب والمؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين من يونان ورومان بالحديث عن الخليج العربي ومدنه وآثاره ، وجزره ، ونذكر من بينهم بليني الكبير ، وأريان[٧] .

أوجه الصلات الحضارية بين العراق القديم والخليج العربي

تنحصر العلاقات الحضارية بين وادي الرافدين والخليج العربي في ثلاثة محاور رئيسية هي :

١ – المحور الفكري

===========

يتمثل هذا المحور في الجوانب الفكرية التي تشمل الحياة الدينية والتطورات عن الكون وعلاقة الإنسان بقوى الطبيعة والتي تنسحب تأثيراتها بالضرورة على الحياة المادية للفرد كالعادات والتقاليد والنشاط الزراعي والفني والمعماري وحتى الملابس والأزياء وغيرها . . . فالخليج العربي بالنسبة للعراقيين القدماء بحر شروق الشمس (البحر الشرقي) وبعض جزره دلمون (البحرين حالياً) كانت أرض سلام وموطن الآلهة وأرض الخلود والمياه

المتدفقة وموطن الخيرات ، وأهلها في شباب دائم وحيواناتها تسرح في ألفة عجيبة فلا يفترس الذئبُ الضأن ولا يظلم فيها القويُ الضعيف ، لذلك فهي في مصاف الفردوس في نظر العراقيين القدماء حسب الأسطورة السومرية . وهي بالإضافة إلى ذلك مرسى لسفن الآلهة والمكان الذي يجلب منه الخشب والتجارة لأبنية معابدها وقصورها في المدن العراقية القديمة[٨] . لذلك يكون طبيعياً أن تمتزج على صعيد الحياة الفكرية أوجه التقارب والتشابه بين العراق القديم ومنطقة الخليج العربي وفق جوانب عززتها العلاقات التجارية المستمرة والمصالح المتبادلة التي ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد . وعلى هذا الأساس فإن الخليجيين عندما شيدوا معابد لآلهتهم خططوا لها على النسق المعماري العراقي القديم علماً أن شكل وتخطيط المعبد يرتبط أوثق الارتباط بالأفكار الدينية وأسلوب العبادة وطقوسها .

فمعبد باربار في البحرين على سبيل المثال يقدم نموذجاً "حياً" لأوجه العلاقات الفكرية بين العراق القديم ودلمون (البحرين) من حيث قضايا المعبد المستطيل الشكل وأحواض الماء الملتصقة لأحد الجدران والمصطبة البيضوية الشكل للأدوار الثلاثة في بناية المعبد . ويقرنه الباحثون بنمط المعابد البيضوية التي شاعت في العراق القديم في الألف الثالث قبل الميلاد (عصر فجر السجلات) في موقع العبيد وموقع خفاجي في منطقة ديالي .[٩]

إن أهم الآثار التي وجدت في معبد باربار (Barbar) والتي تؤكد الصلات الحضارية الفكرية بين العراق القديم ودلمون (البحرين حالياً) تمثال صغير يتطابق في شكله وأسلوب نحته مع تماثيل الكهنة العراقيين ، وكذلك رأس الثور المكتشف في أنقاض معبد باربار والأختام المنبسطة التي لا تدع مجالاً للشك حول طبيعة الصلات الفكرية وأوجهها المشتركة بين الجانبين[١٠] .

ومع أن الأختام المنبسطة صنعت محلياً واعتمدت على مهارات أبنائها إلا أن موضوعاتها عكست طبيعة المنطقة وصلاتها الخارجية فهي تشترك في بعض الأحيان مع موضوعات الأختام

الأسطوانية العراقية الصنع ، وتبقى مشاهد الشراب والزواج المقدس واستخدام الرموز الدينية والمشاهد الطقوسية في القوارب وأشكال نباتية وحيوانية وهندسية ترتبط أوثق الارتباط بمشاهد الموضوعات التي نجدها على الأختام الأسطوانية العراقية[١١] . وهي تعكس في المنطقتين دون أدنى شك مفاهيم وتصورات دينية مشتركة .

٢ - المحور البشري

إن الوثائق الاقتصادية والمعاملات التجارية المكتشفة[١٢] تفترض بالضرورة قيام علاقات بشرية على شكل جاليات كبيرة في كل من العراق القديم ومنطقة الخليج العربي لكي تتابع كل منها مصالحها المتبادلة في الطرف الآخر كما أن اكتشاف مجاميع من الأختام الأسطوانية العراقية الصنع في الخليج العربي يؤكد وجود تجار عراقيين أو وكلائهم في مدن الخليج العربي القديمة وبخاصة في البحرين ويمكننا تصور عدد السكان الخليجيين في بعض المدن العراقية من مضمون ترنيمة دينية على لسان الإلهة عشتار :

"في أور بيت (معبد) دلمون يعود لي"[١٣] .

وإشارت النصوص التاريخية إلى وصول الدلمونيين والمكانيين والملوخيين مع سفنهم إلى المدن العراقية القديمة وخاصة من فترة العصر الأكدي ،وكذلك ورد ذكرهم في مقدمة قانون أور نحو (٧١١-٩٥ق.م)[١٤] وبسبب اتساع الصلات التجارية بين العراق القديم والخليج العربي فقد أطلق على الأشخاص المتخصصين بتجارة الخليج العربي تسمية (Alik Telmun) كان ذلك في مطلع العصر البابلي القديم (١٩٠٠ق.م)واستمر الحال هكذا في العهد الأشوري الحديث (٩١١-٦١٢ق.م)والعهد البابلي الحديث (٦١٧-٥٣٩ق.م) .

إن العلاقات البشرية بين وادي الرافدين والخليج العربي تسبق عهد معرفة التدوين في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد وتؤكد ذلك المستوطنات العبيدية التي تنتشر على امتداد الساحل الغربي للخليج العربي

فيما بين الكويت وشبه جزيرة قطر جنوباً .[١٥]

إن التحليلات الكيمائية التي أجريت على فخاريات المستوطنات العبيدية الخليجية أكدت أن هذه الفخاريات صنعت من نفس طينة المواقع المعاصرة لها في جنوبي العراق وخاصة مواقع أور وأريدو والعبيد ، مما يؤكد انتقال هذا الفخار بأيدي العراقيين الذاهبين إلى مدن الخليج العربي أو أن الخليجيين قد جلبوه معهم بعد عودتهم من المواقع العبيدية العراقية الجنوبية وبذلك يكشف أوجه العلاقات البشرية بين الطرفين منذ الفترات المبكرة للتاريخ .[١٦]

٣ - المحور التجاري

يعتبر هذا المحور من أهم المحاور التي تنظم العلاقات الموضوعية المتمثلة في حاجات الطرفين العراق القديم ومدن الخليج العربي وقد أثبتت النصوص الكتابية المسمارية أن تلك العلاقات تعود إلى (٢٥٠٠ق.م) حيث جاءتنا إشارة كتابية صريحة للأمير أور نانشة حاكم مدينة لكش في جنوب العراق القديم يذكر فيها أنه قد جلب مواد أولية من دلمون (البحرين) ومن بينها الأخشاب لبناء معبد للإله ننجرسو في المدينة .[١٧]

وتبلغ هذه النشاطات ذروتها في عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٢-٢٠٠٤ق.م) ومطلع العهد البابلي القديم (٢١٠٠-١٨٠٠ق.م) . كما تبرز مدينة أور وميناؤها من بين أهم المدن العراقية القديمة في النشاطات مع المدن الخليجية وخاصة دلمون ومكان وميلوخا . وقد أصبح من المؤكد ارتباط دلمون بالبحرين الحالية وارتباط مكان بشبه جزيرة عمان أو الأقسام الجنوبية الشرقية بالجزيرة العربية . أما ميلوخا فعلى الأرجح مطابقتها مع مراكز الحضارة الهندية القديمة (وادي السند) .[١٨]

وإشارت النصوص الكتابية المسمارية إلى مواد الاستيراد والتصدير فمقابل الحبوب والأقمشة والملابس والزيوت والجلود حصل العراقيون على الأخشاب والنحاس والأحجار الكريمة والعاج والكحل وأنواع جيدة من التمور واللؤلؤ .[١٩]

وقد مثّل نحاس مكان أحد المواد المهمة في تجارة الخليج العربي ، خاصة بعد اكتشاف الحديد من المستوطنات في أطراف جبال عمان والتي يعود تاريخها إلى حدود الألف الثالث قبل الميلاد حيث كان من أبرز مقومات حياتها الاقتصادية الزراعية القائمة على بناء سدود لاستغلال سيول الوديان وجمع خامات النحاس وصهرها في أفران خاصة كشف عن بقايا في هذه المستوطنات .[٢٠]

إن جميع السلع والبضائع المستوردة العراقية أو الخليجية كانت تنقل بواسطة القوارب والسفن الشراعية القديمة . حيث وجدت هذه الوسائط النهرية القديمة أن شواطئ الخليج العربي الغربية تتفق مع إمكانياتها في الإبحار في مياه الخليج وصولاً إلى مراكز الحضارة الهندية القديمة في حارابا وموهنجودارو .[٢١]

أما من جهة الشمال والشمال الغربي فقد بلغت مدينة ماري (تل الحريري) على نهر الفرات قرب البوكمال ويبدو أن هذه التجارة البحرية كانت تنتقل بعد ذلك من ماري باتجاه سوريه الوسطى والشمالية وصولاً إلى البحر الأعلى (البحر المتوسط) إن مجاميع الأختام المنبسطة المكتشفة في البحرين تكشف عن الأعداد الكبيرة من سكان الخليج العربي الذين عملوا في الأعمال التجارية أو التهيئة لها فالأختام تمثل هوية أصحابها الرسمية وتقوم في حالة طبعها على رزم البضائع مقام التوقيع على قوائم البضائع المصدرة أو المستوردة إن اكتشاف مجموعة من الأختام الأسطوانية في مناطق الخليج العربي مقابل اكتشاف مجموعة من الأختام المنبسطة الدائرية ذات الأصول الخليجية في المدن العراقية وبخاصة أور تؤكد انتقال أصحابها بين مراكز التصدير والتوريد التجارية للإشراف أو التهيئة أو تنفيذ الأعمال المصرفية وغير ذلك من شئون التجارة .

إن الرحلات التجارية في الخليج العربي كانت مرتبطة بأشخاص معينين تدعوهم النصوص المسمارية (المسافرون إلى دلمون أو ملاحو دلمون) .

وهكذا تكشف المخلفات الأثرية والكتابات المسمارية محاور العلاقات التاريخية بين العراق القديم والخليج

العربي وخاصة دلمون فهي علاقة تقوم على الأبعاد الجغرافية والمصالح المشتركة التي تجد لها تفسيراً في التكامل الاقتصادي أن مجمل العلاقات بين العراق القديم والخليج العربي تأثرت بالأوضاع السياسية القديمة التي أحاطت بالمنطقة آنذاك فقد ضعفت هذه العلاقة أثناء الغزو الأخميني للمنطقة خلال الفترة (٥٣٩-٣٣١ق.م)، ولكن ازدهرت النشاطات التجارية في المنطقة أثناء غزو الإسكندر المقدوني للمنطقة وخلفائه السلوقيين (٣٣١-١٤٤ق.م) حيث تمكن الخليجيون من توسيع نشاط اتصالاتهم مع العراق ليتعدوا إمكانيات النقل المائي إلى طرق القوافل فتنشط حركتهم مع أقسام جزيرة العرب وبابل وسلوقية في العراق[٢٢]، وتزدهر مدينة الجرهاء في الخليج العربي كواحدة من أغنى مدن العرب القديمة لتنافس مدن السبأيين في مدنيتهم وتجارتهم .[٢٣]

د. حسين أحمد سلمان

أستاذ مساعد بكلية التربية

قسم التاريخ - جامعة المستنصرية

الهوامش

١ - Nutzel, L. W., "The formation of Arabian Gulf from (140003500B.C.) Sumer, 1975, PP. 11 FF.

٢ - رضا جواد الهاشمي ، تاريخ الإبل في ضوء المخلفات الأثرية والكتابات القديمة ، مجلة كلية الآداب ، بغداد ، العدد ٢٣ ، ملحق ١٩٧٨ .

٣ - Casperse. E,C,L.,(Harappan Trade in the Arabian Gulf in the third Millenniun B.C. Mesopotamia, VII, 1971. PP. 17 off.

٤ - Oates, J., (Sea faring Mmerchant of Ur) Antiquity Li,203,1977 PP. 22 Iff.

٥ - Frifelt, K., (A possible Link between the Jemdet Nar and the Umman Nar Graves of Oman) Journal of Oman studies Vol. I. 1975, PP. 57 ff.

٦ - رضا جواد الهاشمي ، النشاط التجاري القديم في الخليج العربي وآثاره الحضارية ، مجلة المؤرخ العربي ، بغداد .

٧ - Pling : Natural History, Loeb Classical Library, London, 1967, XII, 62.

Strabo ; The Geography of Strabo, London, New York, 1930, XVI.

Avvian, Sanabasis of Alexander and Indica. Vol.II, VII, 19-I,20-8.

٨ - Frankfort, H., The Art and Architectureof the Ancient Orient. Penguin Books, 1963,P. 21.

Pritchard, J., Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1969, P. 119.

٩ - Frankfort, H., 1963, op. Cit, P. 21.

١٠ - رضا جواد الهاشمي ، النشاط التجاري القديم ، مصدر سابق .

١١ - هشام الصفدي "دراسة مقارنة لأختام الخليج العربي" المنهـل ، مجلد ٤٠ ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٧٩ ، ص ٧١٤ .

١٢ - رضا جواد الهاشمي ، النشاط التجاري القديم ، مصدر سابق .

١٣ - Pritchard, J., 1969, op. Cit, P. 579.

١٤ - IbidIbid, P. 268, 523.

١٥ – العبيد : موقع أثري عراقي قديم يبعد ١٠ كم غربـي مدينـة أور في محافظـة ذي قـار حالياً وتعود مخلفاته الأثرية إلى حوالي الألف الرابع قبل الميلاد .

١٦ – , J.,Oates, 1977, op. Cit.

١٧ – Prichard, J., 1969. Cit, P. 119.

١٨ – Leemons, W. F., Foreign Trade in old Babylonian Period, Leiden, Brill, 1460, PP. 159 ff.

١٩ –-رضا جواد الهاشمي ، النشاط التجاري القديم ، مصدر سابق .

Oppenheim, L. "Seafaring Merchant of UR. Joas, 74, 1954, P. 13.

٢٠ – Tosi, M., Notes on the Distribution and Exploitation of Natural Resources in Ancient Oman "Journal of Oman Studies" (Jos). Vol. I, PP. 187 ff.

٢١ – خارابا وموهنجودارو : وهما من أشهر مراكز المدنية القديمة في وادي السند .

٢٢ – Hourani, G., Arab Seafaring in the Indian Ocean, Beirut, 1963, P. 14.

٢٣ – Strabo, op. Cit, XVI, 4-19.